# القدرية والجبرية

## او الاختيار والاضطرار

## (٢)

ظاهر مما تقدم ان الابحاث التي جرت في هذا الباب هي ابحاث تصورية اكثر منها عملية. فانها لا ترمي الى تعريف حقيقة الارادة ثم بناء فكرة المسؤولية عليها بل الى الاعتراف بفكرة المسؤولية والاحساس بها واقعة ملموسة والبحث عن اسبابها في انواع من التصور والخيالات أقامها الذهن الانساني ليعتبرها مصدراً لتعليلاته المنطقية. ولا شك أن هذا الطريق هو طريق الحلقة المفرغة لا يدري اين طرفاها. لانك لا تستطيع ان تميز في هذه الابحاث تمييزاً دقيقاً اذا كانت فكرة المسؤولية هي التي انتزعت من وجود الارادة الحرة او ان فكرة الارادة الحرة هي التي خلقت لتقوم دعامة للمسؤولية الموجودة والمحس بها. ولولا تقدم العقل الانساني لبقينا في تيهاء غامضة يغشانا نور لا ندري اين مصدره

والحقيقة عندنا ان الارادة ليست قوة خارجة عن الجسم متعلقة بالروح لان الروح ليست شعاعاً مستقلاً عن الجسم على نحو ما كانوا يقولون. وانما الحياة اثر تفاعل المواد المركب منها الجسم الانساني بعضها مع بعض وتفاعلها مع المواد الاخرى في العالم. وهذا التفاعل هو مصدر كل القوى بما فيها الروح والارادة

وليس معنى ذلك ان الحركات والسكنات التي تصدر عنا ليس لها نظام خاص او اننا نحن لا نسير على ناموس في تصرفاتنا غير ناموس الصدفة البحتة. بل ان كل حركة من حركاتنا أيًّا كان نوعها تصدر عن مركز خاص. لكننا قبل ان نصل الى هذا المركز ثم تصدر عنه تمر باجهزتنا المختلفة وتتوزع بعد ذلك حسب انواعها على المراكز المعدة لتلقيها واصدارها. وتتصرف هذه المراكز في التلقي والاصدار تصرف آلي بحت. فالحركة العنيفة تحدث في المركز المقابل لها اثراً عنيفاً يظهر في الخارج في هذه الصورة. والحركة الضعيفة قد تصل من الضعف بحيث لا يظهر لها في الخارج اثر على الاطلاق

وتأثر الجسم ومراكزه المختلفة لا يختلف في شكله عن اثر التفاعلات الكيماوية في معامل ولا عما نراه في المواد غير الحية التي تقابلنا عرضاً في الحياة. انت تضغط قطعة من الخشب او تجر خيطاً في لعبة فاذا بدا اللعبة او عيناها او اسنانها تتحرك وتضغط زراً امامك فاذا جرس يدق بعيداً متأثراً بهزات الكهرباء. وتضع المادة الكاوية على ورق الشموس فتحوله من

الحمرة الى الورقة . ثم تضع حامضاً عليه بعد ذلك فتنقلب ورقتهُ حمرة من جديد . في هذه الاحوال الثلاث يوجد تيار مختلف يحدث حركة ضعيفة . فالتيار الذي يحرك اللعبة هو تيار مادي صرف هو الخيوط او الاسلاك التي تصل بعض اجزائها بالبعض الآخر . والتيار الذي يحرك الجرس تيار لا يمكنك ان تراهُ ولا ان تسمعهُ ولكنك تحس بهِ اذا لمست الاسلاك التي يسير فيها ويصبح جزءاً منها ما دام مصدرهُ موجوداً . والتيار الذي يحدث الانقلاب الكيماوي باختلاف المادة المضافة الى التموس من قلوية الى حمضية تيار غير محسوس بالكلية . ولكن يظهر لنا اثرهُ كما سمعنا الجرس وكما رأينا تحرك اللعبة ولكننا لا نعرف سببهُ على النحو الذي عرفنا بهِ سبب الاثرين الآخرين

ثم انت ترى عدسة الفنوغرافية تلقي الصور التي امامها في لوح الزجاج (المصنف) اذا وضع على بعد معين منها مستعيناً في احداث هذه الصور بخيوط النور التي تصل ما بين الكائنات ولا نستطيع تعريفها . وتميز دقات التلغراف اللاسلكي في العدد المقابلة منقولة اليها باثير الهواء وتموجات تيارهِ . وتسمع من الفونوغراف اصواتاً مضبوطة تظهر الى الوجود من سير الابرة فوق موجات اسطوانة . وكذلك تنقل هذه التيارات المحسوسة المعروفة او غير المعروفة لنا آثاراً معينة هي نتيجة مرور صور معينة عن طريقها بآلات او اجسام معينة

مثل الانسان في حركاتهِ وحياتهِ مثل هذه الآلات وتلك الاوتار . ولكن نظامهُ مركب دقيق يصل احياناً الى حد التعقيد فيقف الفهم والتصور دون ادراك حقيقة بعض ما فيهِ بل دون الوصول الى خيال يكاد يقنع المنطق الانساني بشابهتهِ لهذه الحقيقة . في تلك اللحظات يرجع الرجل منا الى ذلك الطفل الحصين الذين ظالما احتمى فيهِ اباؤنا الاقدمون قبل ان ينير العلم بشعاعهِ الضئيل بعض اركان عالمنا الشاسع الغريب . يلجأ الى الغيب والقوة والقدرة العازب عنا علمها والتي لا ندلو منا لنتعرف شيئاً من ماهيتها

ولكن جهلك الشيء لا يدل على صدورهِ عن مصدر خارج عنهُ وعن اشباههِ ونظائرهِ . بل كل ما يدل عليهِ انك تجهلهُ في حين ان غيرك ربما يعرفهُ او في حين ان جيلاً آخر ربما يصل لاكتشافهِ والوقوف على حقيقة امرهِ . ولئن بقي هذا الشيء غامضاً ابد الدهر فان القوانين العامة التي تحكم العالم تكفي لتفسيرهِ ولو على طريقة الاخذ بامثالهِ . وقد دل العلم على ان اشياء كثيرة كانت لا تزال بعيدة عن تصور الانسان ولكنهُ كان يدركها بالهام خاص حين كان يردها الى اشباهها ونظائرها ادراكاً لم يكن بعيداً عن الحقيقة كثيراً

اعتقد الفلاح انسان اول ما رأى قطار سكة الحديد او الترام او الاتومبيل يسير

من تلقاء نفسه من غير ان يجرّه ثور او حصان ان قوة غريبة تسيره او ان شيطاناً يسكن في داخله . فلا أفهم على توالي السنين وبمشاهدتي وابورات المياه التي تجتاز مزرعتنا ان النار والماء هما المصدر لكل تلك الحركة بدأ يتصور ان هناك قوى معروفة لدى بني الانسان ممن ( شافوا الدنيا ) ولا علاقة لها بالشياطين ولا بالملائكة وان هذه القوى هي التي تسير تلك الاجسام الهائلة التي يراها . وعلى ذلك فلا معنى بالطيارات لم يحتج ان يلتجئ الى قوى خارجة عن العالم لانهُ رد حركة الطيارة الى مشابهاتها التي معهُ على الارض

فالحركات التي تصدر عن الانسان وتظهر لنا هي اثر اما وجودات الخارجية منعكسة عن الاجهزة المختلفة المعدة لتلقيها . واتصال هذا الاثر بطريق اجهزة وتيارات مادية متصلة بمركز الحركة الانساني اما مباشرة او بطرق وتيارات اخرى تحمل هذا المركز يحدث هذه الحركة على نحو ما احدث ضغطك الخشبة في اللعبة من تحرك يديها وعلى نحو ما حصل حين ضغطت زر الكهرباء فدق الجرس وعلى نحو الآثار المختلفة التي تقدم ذكرها وآلاف آلاف غيرها مما يرى الانسان في الخارج . ولما كانت اجهزة الانسان وتياراتهُ اول نشأتهِ متشابهة كل التشابه كانت الحركات التي تصدر عن الاطفال متشابهة اتم الشبه . فالطفل اول ما يولد يبكي او بالاحرى يحدث صوتاً يشبه البكاء . وهذا الصوت ناشئ من تأثر رئتيهِ بالهواء الخارجي . كذلك هو يدافع عن نفسهِ في اول ايامهِ بالطريقة الآلية الصرفة التي حبتهُ اياها الطبيعة فهو يستنجد عن طريق البكاء او هو يدفع بيديهِ . وتبقى هذه الحالات العكسية الصرفة (etats reflexes) عندهُ زمناً غير قليل بل منها ما يبقى يصاحبهُ طول حياتهِ

ولكن انقضاء زمن الطفولية الاولى يقضي معهُ على هذا الشبه و ينتقل الاولاد حينذاك من الحالة الانعكاسية التي يكونون فيها مثل مرآة تعكس ما يقابلها من الصور والموجودات والحوادث الى ما يسمونهُ بحالة الرغبة (etat de desir) وهي الحال التي يكون الطفل فيها أسير شهواتهِ ورغباتهِ بمعنى انهُ اذا رأى شيئاً استهواهُ ورغب في الحصول عليهِ تحكمت فيهِ فكرتهُ هذه حتى يهون عليهِ معها كل شيء حتى يهون عليهِ منها اتلف نفسهِ

وهذه الحال لا تختلف عن الحال العكسية الصرفة الا من حيث انكم والاتجاه . اما من حيث الكيف فهي وتلك الحال الاولى سواء وسبب هذا الاختلاف في الكم والاتجاه لا يرجع الى ارادة خاصة ولكنهُ محكوم بقوانين قاسية تمشي على الانسان وعلى الجماد وعلى سائر ما في هذا الكون مما يقع تحت عيوننا . واظهر هذه القوانين قانون بقاء الاصلح وتلاشي مالا فائدة منهُ . وقانون آخر متفرع عن القانون الاول وهو ان استعمال الشيء يزيدهُ قوة

وصلاحية واهمالهُ يضعفهُ و يفنيهِ . فاذا كانت بعض الاجهزة والتيارات في طفل اضعف منها في طفل آخر بطريق الوراثة او لسبب من الاسباب او كانت هذه الاجهزة على تساويها قوة فيها مرّنت في احدها واهملت في الآخر نتج عن ذلك على مرور الايام اختلاف اجهزتهما في التلقي والاصدار وكان لما يتلقاهُ الجهاز القوي من شدة الاثر في نفس الطفل ما يحرك في نفسهِ اشد الرغبة في حين يمر ما يتلقاهُ الجهاز الضعيف غير محسّ بهِ فكأنهُ لم يكن.

ولنضرب لذلك مثلاً واضحاً . طفل عمي بعد ثلاث سنوات من ولادتهِ . هذا الطفل لا يمكن ان تنبع عندهُ الرغبة لمسة على منظور من المنظورات . ذلك لان الحاسة التي تتلقى هذه المنظورات وتبعث بها عن طريق التيارات الاخرى الى المصادر التي تحرك النفس وتستدعي الرغبة تلاشت . وما يقال هنا يقال عن تلاشي اي جهاز معد لتلقي واصدار اي حركة او اي محسوس . هذا طبعاً الاّ اذا امكن الاستعاضة عن الجهاز المفقود بجهاز آخر ولو الى حد محدود . وفي هذه الحالة يكون التأثير الذي تحدثهُ الاشياء الخارجية في الاجهزة — او على نحو ما يقال عادة في النفس — متناسباً مع قوة هذه الاجهزة وضعفها . وهذا يدل ايّ الدلالة على ان حالة تحكم الرغبة لا تفترق عن الحالة العكسية الصرفة الاّ في الكم وفي الاتجاه مع اتفاقها معها في الكيف وسيرى القارئ ان حالة الارادة (L'etat volontaire) هي ايضاً طور خاص من اطوار الحالة العكسية يظن انهُ ارقى من تلك الاطوار ولكنهُ لا يغير شيئاً من نوع تلك الحالة

فارادة الواحد منا لا تتحرك من نفسها بل اجابة لمؤثرات خاصة تستثير منها الحركة . وهذه المؤثرات هي الاشياء الخارجية التي تمر بأجهزتنا وتحرّكنا . وحركتنا التي نعتقدها اختيارية صرفة ليست الاّ نتيجة تأثر الاجهزة والتيارات التي تحركت بانعكاس الحوادث والاشياء الخارجة عليها . وغاية الامر ان هذا الانعكاس اما ان يقابل أجهزة معدة لتلقيهِ فتتأثر بهِ بسرعة وبذلك ينتقل اثرهُ سريعاً ويحدث الحركة وهذا ما يحصل حينما تكون الحوادث والاشياء مما اعتادت اجهزتنا وتياراتنا تلقيهِ واصدارهُ . ومعلوم مما سبق ان التكرار يورث العضو او الجهاز الذي يحدث فيهِ قوة ومتانة وسرعة . وهذه الانعكاسات المتواترة هي ما نسميهِ بالعادات . واما ان يقابل ذلك الانعكاس اجهزة قليلة الاستعداد لهذا التلقي والاصدار . فحين ذاك تخترق الصورة حجب تياراتنا مترددة وعلى سهل كما يخترق شعاع النور الفتيل غرفة من خلال زجاج غير شفاف . نرى هذا الشعاع كأنهُ تائه وسط الغرفة لا يستقر في مركز من الحائط المقابل الاّ بعد ان يزداد

مصدره قوة وثباتاً . هنالك يستقر اخيراً ويثبت . كذلك الصورة المنعكسة على اجهزتنا التي لم تعود تلقيها واصدارها نجد من هذه الاجهزة ارتباكاً في نقلها الى التيارات المعدة لنقلها الى مركز الحركة الذي يسمونه مستقر الارادة . وفي اثناء هذا التردد تنهال علينا عاداتنا القديمة وتذكاراتنا الماضية وتعاليمنا الخاصة وحالتنا الوراثية وما نحن فيه من صحة ومرض وظروف الوقت التي تحيط بنا والصدف التي تصرف لنا حد كبير حياتنا فتثبت ارادتنا في ناحية من النواحي . ولكنك اخرى تعدل تياراتنا النائلة للحركة الى الطريق الملائم لهذه الظروف والاحوال التي لا عداد لها والتي لم يكن لنا دخل ارادي في تكوينها . فهل مع وضوح المسألة الى هذا الحد يمكن القول بان الحال الارادية هي شيء آخر غير الحال العكسية وجهت جهة خاصة غيرت في كنهها واتجاهها ولم تغير مطلقاً في نوعها وكيفها ؟

على ان لدينا دليلاً آخر ابلغ ما يكون في الاقناع بان حالنا الارادية ليست الا اثر تفاعل المواد المركب منها جسمنا مع نفسها ومع المواد الاخرى . وهذا الدليل يستنتج من حالتي السكر والمرض . هاهو صديقك مصمم كل التصميم على القيام بعمل خاص . ولقد رجوته كثيراً ان يعدل عن رأيه او يغير ارادته فرفض رفضاً باتاً مع تقديم اقوى معاذيره . وانكما لتسيران في الطريق واذا بالمطر ينزل فاضطررتما ان تميلا الى قهوة من القهوات . وطاب لكما المجلس واستمر المطر يهطل وخيم الليل واضاءت مصابيح الكهرباء ولذ لكما تناول شيء من الكنياك او الويسكي . ووجدتما صنف المشروب الذي قدم لكما جيداً فاستزدتما منه . أفترى صديقك باقياً على تصميمه الاول ام ترى فعل المشروب اخذ في نفسه وعدل آراءه وجعله شخصاً آخر غير الذي كنت تراه منذ ساعتين مضتا . فقد تراه اذا عرضت له فكرة اخرى يبدي فيها رأياً ربما كان نقيض ارأي الذي ابداه قبل نزول المطر . كذلك ترى هذه الحال عند اصابته بمرض . فانه يصاب بضعف في الارادة وفتور في تحول التيارات الفكرية الى حركات عملية وهمود عام تصير روحه ضعيفة مبلغ ضعف جسمه

وقعت على بعض امثال مما كتبه بعض كتاب الانكليز والفرنسويين في هذا الباب اريد ايرادها هنا دليلاً على ما قدمت

ادمن الكاتب الانكليزي دكونسي الافيون حتى بلغ من ذلك ما لم يبلغه غيره . فوصلت به الحال الارادية الى حال من الضعف كادت تتلاشى معه . فكان يود من كل قلبه انفاذ عمل يراه ممكناً ويحس ان انفاذه واجب عليه ولكن حركته الفكرية كانت تخطى قوته العملية الى حد تعجز فيه عن انفاذ ما يريد بل عن الشروع في ذلك . فكأنما كان تحت

سلطان كابوس يرى معهُ ما يريد القيام بهِ دون استطاعتهِ كما يشهد رجل اقعدهُ الضعف المهلك عن مغادرة فراشهِ المساءة موجهة الى موضع من مواضع جسمهِ وعطفهِ فيلعن المرض الذي اقعدهُ ومنعهُ الحركة و يود ان يخلص نفسهُ من الحياة لو استطاع ان يقوم و يمشي ولكنهُ عاجز عجز الطفل ولا يقدر ان يقف على قدميهِ . ( كتاب اعترافات آكل الافيون صحيفة ١٨٦ — ١٨٨ )

وذكر الطبيب الانكليزي بيت حالة رجل كان لا يستطيع انفاذ ما يريد انفاذهُ . فكثيراً ما كان يرد خلع ملابسهِ ثم يبقى ساعتين عاجزاً عن القيام بهذا العمل مع ان قواهُ العقلية خلا الارادة كانت كاملة ولقد طلب يوماً كوب ماء فقدم اليهِ فلم يستطع تناولهُ رغم رغبتهِ فيهِ فترك الخادم واقفة امامهُ نصف ساعة قبل ان يستطيع التغلب على هذه الحال . وكان يقول انما يخيل لهُ ان شخصاً آخر يمسك بارادتهِ

ولقد فاضل الفيلسوف الفرنسوي مين دي بيران ليتغلب في نفسهِ على ما فيهِ من ضعف الارادة ووجهُ لذلك كل همهِ وكان كل ما يرمي اليهِ من فلسفة تغليب الارادة على النزعات الجسمانية . لكنهُ اضطرَّ اخيراً ان يعترف « ان الحرية ليست الاَّ الاحساس بحال معين من احوال النفس نودلنفسنا ان تكون عليهِ ولكن هذه الحال متعلقة في الواقع باستعداد الجسد الذي لا نقدر من امرهِ على مسها وان كل الميول والعواطف التي يظنها الناس مصدر السعادة ليست الاَّ اثراً من آثار نظامنا الجسمي كالسعادة نفسها » ( أفكار مين دي بيران ص ١١٧ وص ١١٩ )

فذلك كلهُ يحمل على الاعتقاد بان اعصابنا وتياراتنا المادية هي التي تصدر عنها افعالنا التي تبعث بها ارادتنا وان اي مادة اخرى يمكن ان تؤثر في هذه الاعصاب والتيارات تغير في اتجاه الارادة والعمل . لذلك فما تقدم لا يدع مجالاً للريب في ان الحالة الارادية ليست الاَّ طوراً خاصاً من اطوار الحال العكسية وانها متعلقة تمام التعلق بتأثر اجهزة الجسم وتياراتهِ بالآثار الخارجية وهذه الآثار هي المحيطات الزمانية والمكانية . ومعنى هذا ان الارادة الحرة لا وجود لها . فكيف والحالة هذه تمكن مثل مشترعي الاديان وعقلا نابليون واضرابهِ ان يغيروا في وجه العالم بارادتهم ما غيروا وان يقيموا دعامة المدنية الحاضرة على الشكل الحالي اذا لم تكن ارادتهم الاَّ صدى الحوادث الخارجة عنهم

هذا هو القسم الثاني من الاعتراض الذي رأينا ان نرد عليهِ . ومعنى هذا الاعتراض

عند اصحابه انهم يفترضون الفرد الانساني وحدة قائمة بذاتها مؤثرة في العالم قبل ان تكون متأثرة به . كلا بل هي روح العالم كله على ما قالوا

وتزعم انك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر

وعلى هذا الافتراض الوهمي الصرف بدوا نظرتهم في حرية الارادة مستودين بهذه الارادات العليا . ولكنهم اكبروا شأن الانسان اكباراً لا محل له . ليس الانسان الا ذرة من ذرات هذا العالم العظيم الذي لا تدري فيه حدود الزمان ولا المكان ولا تفقه لها معنى وهو ذرة ضئيلة لا يعبأ الكون بوجودها ولا يهتم بفنائها . فهو ان له قيمة خاصة في وجود العالم لما حقرت الطبيعة من شأنه الى حد ان لم تكترث له ولم تهتم به اكثر من اهتمامها باي جرذ وباي حجر وباي قطرة ماء في المحيطات الواسعة . ثم هي بمدنياتها اقل اهتماماً ان كان لتتناهى في الاقلية محل . أترى ان المدنيات المتنافية حادت بكوكب عن فلكه او قدمت كسوف الشمس او اخرت خسوف القمر او قلبت المد جزراً والجزر مداً . ام ترى ان ما تغيره المدنيات ليس هو الا حركة متناهية في الاقلية وصغر الشأن اذا قيست بالبعوضة التي وقفت على قرن الثور . فاذا كان ذلك لم يبق محل لاعتبار الانسان مركز دائرة الفلك وانما يجب وضعه في الموضع اللائق به . ذرة تتحول من جماد الى نبات الى حيوان هو الانسان ثم الى جماد الى نبات آخر وهلم جرًّا

اذن ما هي هذه الارادات العليا . سمعنا كثيراً عن باخرة من البواخر استطاعت ان تقطع تيار التلغراف اللاسلكي الذي تبعث به باخرة لاخرى . وعرفنا ان السر في ذلك ان تيار تلغراف هذه الباخرة اقوى من تلغراف الباخرتين المتراسلتين . فاذا ارادت ان تخاطب احداهما لم يحل دون ذلك حائل لان تموجات الاثير تساعد تيار عدتها لانها اقوى العدد والطبيعة تساعد القوي وتحور على الضعيف

والقوي هو المخلوق الاكثر ملاءمة للزمان والمكان اللذين يوجد فيهما والضعيف هو الاقل ملاءمة لها . تلك الارادات العليا التي يقولون عنها في مجموع تيارات قوية اكثر من غيرها استعداداً للتلقي والاصدار . فاذا رقمت عليها الصور الخارجية وانقلبت عن طريق تياراتها الى حركة كانت هذه الحركة بحيث تأخذ بالابصار وتستدرج التيارات الضعيفة نحوها للتلقي عنها على نحو ما اخضع تيار الباخرة القوية الباخرتين الضعيفتين . وهذه القوة هي سر البطولة اي النبوغ والعبقرية ولكن القوة في التلقي والاصدار ليست دليلاً على الحرية بل على حسن الاستعداد للوسط المحيط بالاجهزة العبقرية . فاذا نحن نسبنا الى هذه

الاجهزة الحربية كنا نكن ننسب الى شخص قوي الحافظة قصيدة يرويها لمجرد سماعها مع انهُ لم يكن الاَّ آلة بسيطة في ترديدها . وكذلك فهؤلاء الابطال يرددون بقوة صدى الوسط الزماني والمكاني الذي يعيشون فيهِ متأثرين بعوامل ذلك الوسط نفسهِ فيصبح ذلك الصدى قوة جديدة تؤثر مع المؤثرات المحيطة بها

وهذا التفسير الموجز يسمح لنا ان نقول ان العظماء والابطال هم اكبر الناس استعداداً للبقاء والتغلب على امثالهم من الذرات الاخرى التي تنافسهم لانهم الاقوى والاصلح للبقاء . وهو يسمح لنا ايضاً ان نقول ان ارادتهم القوية لا تفترق في كيفها عن الارادات الاخرى وانما الاختلاف في الكمّ في القوة والضعف . وقد رأينا ان الارادة في الانسان ليست الاَّ طوراً من اطوار الحال العكسية في اتجاه خاص . اذاً فالحرية مفقودة من العظماء مبلغ ما في مفقودة من عامة الناس

يتبين مما سبق ان ما يسمى بالارادة ليس هو الاَّ المظهر الذي تنقلهُ الحركات الخارجية عن طريق اجهزتنا وتياراتنا المادية او المتعلقة بما فينا من مادة حسب تكوين تلك الاجهزة والتيارات وما توالى عليها من التقلبات والتغيرات من وراثة ومرض وعادات خاصة ووسط اجتماعي وغير ذلك من الآثار والمظاهر المادية وان ليس هناك شيء خارج عنا مصرف لنا غير المادة التي تكوننا وما في هذه المادة من قوة ملازمة لها متعلقة بها لا يمكن ان تنفصل عنها مهما بولغ في تحليلها

ولقد جعلنا وجهتنا فيما اتخذنا من الامثلة استظهار ابسط ما يصل اليهِ الحس مما وصلت الى تحليلهِ يد الانسان . ولو انا اردنا تلمُّس المثل من عالم الحيوان اوعالم النبات لما اعوزنا . بل لو انا طرقنا باب ما اوصلت اليهِ مبادئ لجوزو في كتاب الفلسفة الجنائية لرأى القارىء كم تؤثر المظاهر الجسمية في الاخلاق وكيف توجه الارادة وجهاً خاصة . ولكنا لم نرَ محلاً للدخول في مسائل ربما ادّى تعقيدها ودقتها بالشك ان يتسرب الى نظرتنا . فاكتفينا بابسط الاشياء وكانت هي المساعد لنا في توضيح غرضنا

والى هنا نرى اننا اثبتنا مبدأ الجبر المطلق واقمناهُ على اساس متين . ولكن هل معنى ما تقدم انعدام المسؤولية وهدم الاعتبارات الاخلاقية . وان لم يكن ذلك فعلى اي اساس تقوم المسؤولية وكيف لنا ان نفرق بين الخير والشر وان نمدح فاعل الاول ونذم مرتكب الثاني؟ ذلك ما سنبينهُ في كلمتنا الثانية وهي عن المسؤولية

محمد حسين هيكل المحامي
دكتور في الحقوق